أهمية إصلاح ذات البين

من أكثر ما يتألم له قلب غيور على دين الله تعالى: ما نراه كل يوم من اتساع هوة الخلافات بين الأفراد والجماعات – على نطاق الصحوة الإسلامية – وبين كل الناس وفي كل مكان – على نطاق المجتمع المسلم كله.

ولا شك أن هذا من شؤم تنكب الصراط المستقيم، وهجران المنهج الصحيح، وخطأ التربية الإسلامية القويمة، مما يستتبع بالضرورة نهضة لاستدراك هذا الخطأ، وذلك بمحاربة الفرقة، والتأكيد على مبادئ الوحدة ولم الشمل وجمع الصف.

وقد يتساءل البعض، كيف يمكن أن نتصور هذا العمل طريقة من طرق خدمة الدين؟

وأنا أخبرك أيها اللبيب، كيف نستطيع أن نبني أمة واحدة، ونبدأ في تأسيس هذا البنيان بالمجهودات البسيطة، التي قد يظنها بعض الناس هزلا، وما هي إلا الجد الذي لا هزل فيه.

قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين"، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (وكل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة).

لقد درس بعض الباحثين في المجال الاقتصادي عن سبب تفوق اليابان على الدول الغربية في المجال الصناعي والتقني والإداري، مع أن الدول الغربية أسبق في كل هذه المجالات.

فخلص هذا الباحث إلا أن التنمية اليابانية بما فيها من حركة اقتصادية وصناعية وإدارية تتضمن عنصرا اجتماعيا حيويا ليس موجودا في المجتمع الرأسمالي الغربي، ألا وهو الروح الجماعية في آلية التنمية اليابانية، ويعني بذلك أن الصناعة والتجارة والإدارة اليابانية – وإن كانت رأسمالية – ولكنها كانت بعيدة عن الفردية المتطرفة التي نادى بها رأسماليو الولايات المتحدة، والتي هي أشبه ما تكون بالإقطاع، أو نظام الرق المقنن.

إن عجلة التنمية اليابانية حرصت على ألا تجعل لأصحاب رؤوس الأموال خاصية تسلطية على من تحتهم، وأضحى هذا المسلك عقيدة اجتماعية لدى أصحاب رؤوس الأموال أنفسهم، فصاغوا فكرا اقتصاديا قائما على إشراك كل العمال في الوحدة

الصناعية أو التجارية في مصير الربح والخسارة، فإذا ابتكر عامل طريقة جديدة لحل مشكل صناعي، نسب هذا الابتكار الجديد إلى كل الوحدة، مع عدم إهمال مكافأة المتميز.

كما أن التنمية اليابانية احتفظت بالطابع الشرقي الذي يعظم مكانة الأستاذ والمعلم، فالعامل الصغير يعظم رئيسه في العمل بمقتضى موروثاته الاجتماعية، مما أكسب العمال ترابطا تلقائيا كسر من حدة أي تسلط رأسمالي على حساب طبقة العمال.

ويمكنك أن تلمح هذا الترابط الاجتماعي في المجتمع الياباني عبر احترام بعضهم لبعض، وحرصهم على أداء التحية اليابانية المعروفة في كل لقاء.

ونحن لسنا بصدد نقد حضارة وثنية مثل الحضارة اليابانية، ولكننا نتبصر في جوانب الخير والحكمة التي هي ضالة المؤمنين، لنتمثلها في أخلاقنا وعاداتنا، فالشرع من ترك من خير إلا وأمر به، وما ودع من شر إلا ونهانا عنه، وقد قال الله تبارك وتعالى: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون".

وما نحن بصدده الآن أن نوجد ذلك المجتمع المتوحد في معرفة المصير والهدف، وأن نقلل من الخلافات المحتدمة فيه، وأن نوجد الآلية التي نضمن بها اجتماع المسلمين على كلمة سواء.

إن ترابط المسلمين من شأنه أن يخطو بنا خطوات واسعة نحو النصر والتمكين، وتعاون الجماعات العاملة في حقل الدعوة من شأنه أن يكسب رصيد الصحوة زخما يؤثر ولا شك في انطلاقتها العالمية.

ولا شك أن ما ننادي به هنا يعده بعض الناس حلما، وبعض الناس يعده أمرا غير مطلوبا بالدرجة الأولى، ونحن لا ننكر صعوبة ما نتحدث عنه، كما لا ننكر أن قضية الوحدة في هذا الوقت ليست من أولى الأولويات[1]، ولكننا يجب أن نعتقد أنها واجب مهم من واجبات الشرع، وأساس متين من أسس الجماعة المسلمة التي وعدها الله بالنصر والتمكين.

---

[1] يرى الكثير من الدعاة أن توحد الجماعات الإسلامية في هذا الوقت العصيب الذي تمر به الأمة الإسلامية يواجه صعوبات جمة، كما أن تربص أعداء الدين بتيارات الصحوة المختلفة أكسبها وجلا من محاولة إعلان التوحد لئلا يؤدي إلى حملة استئصالية لكل تيارات الصحوة. ولا شك أن هذه النظرة تحوى بعض الوجاهة، ولكننا لا ينبغي أن نرضى بهذه الحال، وأن يكون عملنا منصبا في تهيئة الجو المناسب لإحداث هذه الوحدة، لا أن نرضى بهذا الوهن والهوان، ثم نمضي في طريق تأصيل الخلاف والتهاجر، فهذا والله مما لا يرضي الله تبارك وتعالى، ونحن نبرأ إلى الله تبارك وتعالى من خلاف مبني على الهوى، ونبرأ إلى الله من كل من يحاول الوقيعة بين المسلمين، ويعمل على تأجيج نار الفرقة بينهم، وهؤلاء لعمر الله أضر على الأمة من أعدائها الحقيقيين، فإلى الله المشتكى، وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وعليه فلا يجوز التعامي عنها كهدف نسعى إلى تحقيقه، حتى ولو بصورة بدائية، أو بطريقة مرحلية، تتحقق فيها الأناة والروية اللذان هما شرطان أساسان في كل عمل ناجح ودائم.

نعم أيها القارئ الكريم ... إن إصلاح ذات البين يجب أن يكون هدفا نسعى لتحقيقها بالقدر المستطاع، وغاية يجب أن تعم كل تطلعات شباب الصحوة ودعاتها.

بل هي هدف اجتماعي يجب أن يتحقق على مستوى الأفراد بالصورة التي تكون سببا في تحققها على مستوى الجماعات.

إننا نراقب بكثير من الألم والقلق مواقف كثير من الدعاة من بعضهم البعض، وندهش من هذا التراشق الذي يحدث بين أناس يجمعهم منهج واحد في فهم الكتاب والسنة، بل وتحدوهم غاية واحدة في إعزاز الدين، بل ويجمعهم مصير مشترك ضد أعداء معروفين للإسلام والمسلمين.

والأدعى للتعجب أن هؤلاء لا يتفرقون في أصول عقدية واضحة، بل في مسائل هي معدودة على التحقيق من فروع المعتقد، بل يعدها بعض الأئمة من الخلاف اللفظي.

أنا لا أنكر بدهية وجود خلاف واختلاف، ولكنني أزعم أنه ليس من ضرورة الخلاف أن تحدث العداوة والبراءة، بل والمحاربة، وأن تستخدم المنابر التي ما نصبت إلا للأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر.

وقد رأى أحد السلف رجلا يغتاب مسلما، فسأله: هل غزوت هذا العام؟ فقال: لا! فقال: سلمت الروم والكفار من سيفك، ولم يسلم المسلمون من لسانك؟

وأرى أن هذا المشهد يحدث بحذافيره، فقد سلم أعداء الله من العلمانيين والشيوعيين وأهل البدع الكفرية كالبهائيين والقاديانيين والشيعة الرافضة من ألسنتنا معاشر دعاة أهل السنة، ولم يسلم بعضنا من لسان بعض؟

لعمر الله إنها الفاقرة التي تركت الديار بلاقع، والحالقة التي تحلق الدين، وموروثات الهوى ورواسب الجاهلية ما زالت متمكنة في النفوس، وتحتاج إلى قومة لله صادقة، نستأصل بها هذا الدرن، ونصلح بها حنايا القلب، ونحرر النية، ونطهر الطوية، ونمحض القصد، ونمحص الإرادة، والله الموفق والمعين.

إن الصحوة تشهد استقطابا حادا في مسائل فروعية، وليت الخلاف يبقى في دائرته الضيقة الشرعية من مناصحة بالأدلة، وتغافر بعد المحاورة، واعتقاد ثبوت الأجر للجميع، ولكن الأمر لم يركن إلى شيء من هذه الآداب الإسلامية، بل تعداها إلى تحزب وتناحر،

حتى صارت بعض الجماعات توالي وتعادي على مسألة واحدة من فروع المعتقد، وكل ذلك من شؤم الخلاف والفرقة، والله المسئول أن يصلح أحوال المسلمين.

إن هذا الكلام – أيها المستمع الكريم – يخاطب قلب ووجدان من اعتصره حال الإسلام والمسلمين، وينادي على كل ذرة شفقة في قلوب المسلمين، ليقفوا وقفة واحدة أمام أعدائهم، ولن أقول كما يقول بعض الهلاميين: (أن ننسى خلافاتنا)، فإن هذا ليس معقولا، ولا مشروعا، فالخلاف سنة قدرية، واعتقاد الراجح سنة شرعية، ولكن المعقول والمشروع ألا يكون الخلاف السائغ سببا في الفرقة والتنازع.

وقد نادى بعض الدعاة بتكوين لجنة حكماء، وظيفتها تدارك الخلاف بين الجماعات التي تجمعها آصرة أهل السنة والجماعة، بحيث تقوم بدور لجنة المساعي الحميدة بين المتخاصمين والمختلفين من الدعاة أو الأفراد.

وهي فكرة جديرة بالتطبيق، وحري أن يهتم بها ولها كل غيور على دين الله تبارك وتعالى، ولكن في إطار الشرعية العقدية والجماعية التي أصلتها نصوص الشرع ومنهج السلف الصالح في الاجتماع والولاء والبراء.

إن لنا أن نتصور المصالح العظيمة التي ستعود على الصحوة لو تحقق مثل هذا الأمر، ويمكننا أن نتصور كمية الجهود التي كانت تبذل في تلك الخلافات العقيمة، وكيف أنها ستصرف في صالح الإسلام والمسلمين.

إذ لم يعد من المقبول أن نرى العالم كله يتوحد، والأعداء كلهم يتعاونون لتحقيق غاياتهم وأهدافهم، ونحن نرى المسلمين، بل أهل السنة والجماعة متشرذمين، وهم نقاوة المسلمين وخلاصة الخلق أجمعين.

وهذه بعض الأفكار التي نقترحها لتحقيق وحدة الجماعات العاملة في حقل الدعوة بالدرجة الأولى:

١- تلاقي القيادات الإسلامية والدعاة والعلماء في المناسبات المختلفة، والأفضل أن تكون هناك لقاءات دورية ومؤتمرات لمناقشة شئون الدعوة.

٢- تكثيف الأدبيات التي تعنى بتوحيد المناهج وفق الكتاب والسنة، وضرورة الأخذ بمبدأ المناصحة، وعدم احتكار الحق، والتغافر في قضايا الخلاف السائغ.

٣- تكثيف التعاون بين الجماعات في القضايا المصيرية، والتوحد في المواقف التي تستلزم عدم التنازع والفرقة أمام أعداء الدين.

٤- الرقي بمستوى التعاون بين الجماعات العاملة في حقل الدعوة عبر تكثيف تبادل الخبرات الدعوية لتوسيع مساحة الدعوة بين شرائح المجتمع، ومن مقاصد هذا الاتجاه أن يتم التنسيق بين القيادات في الأعمال الدعوية بحيث لا يجور بعضنا على بعض. فالمجتمع ساحته رحبة تتسع لعمل كل الدعاة، فلنهجر مسلك التناحر والتسابق إلى احتلال المواقع من بعض، وليكن النزاع بيننا وبين أعداء الله تعالى.

٥- تنمية روح المودة في الأفراد عبر هجر مسلك التحذير وتشويه الصورة، بأن يكون حديث الدعاة عن بعضهم حديث أخ محب لأخيه محترم لغيبته، فينشأ الناشئون في الصحوة على احترام كل الدعاة وتوقيرهم والتماس المعاذير لمخطئهم، والدعاء لهم جميعا بظهر الغيب.

٦- تشجيع المخيمات الصيفية المشتركة لتنمية روح المودة بين الأفراد والجماعات والدعاة، ولتكن هذه المخيمات نواة وبداية لتوحد الصف.

٧- تكوين مجلس حكماء من قادة ودعاة الجماعات العاملة في الساحة يقوم بحسم النزاعات بينها، والتخطيط والسعي لوحدة الصف الإسلامي.

٨- إصدار البيانات المشتركة في حالة الأحداث الجسيمة التي تلم بالأمة، فإن هذا من شأنه أن يشعر الشباب بتوحد القيادات، فتنمو روح العزة الإسلامية في نفوس الشباب ويزدادون ثقة وطاعة لقياداتهم.

٩- درء كل خلاف يحدث بين الأفراد والجماعات، ومحاولة منع تفاقمه، أو التقليل من أضراره ومفاسده. وتسوية الخلافات عبر المسئولين، وعدم استخدام المنابر ووسائل الإعلام للحديث عن الخلافات بين الدعوات والدعاة.

١٠- ضرورة التخلق بآداب العمل الجماعي، وبآداب الأخوة الإسلامية على وجه العموم، وتطبيق مواثيق المودة والموالاة بين المؤمنين.